من هنا وهناك

آثار الدولة المعينية فى جوف اليمن

قام علماء الآثار والتاريخ بدراسات شتى لمختلف الحضارات القديمة ، فذكروا بعض الشئ أو أكثره مما بحثوا فيه عن الحضارات الصينية والهندية والفرعونية والأشورية واليونانية والرومانية وغير ذلك ، وبقيت حضارة اليمن، أو حضارة سهول القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ ، مجهولة إلى يومنا هذا ، ولم يعرف عنها إلا القشور التى لا تؤدى إلى معرفة تلك الحضارة معرفة صحيحة .

فبعد أن تمكن الصيدلى الفرنسى أرنو T.J. Arnaud أن يكون أول باحث وصل إلى منطقة سبأ فى عام ١٨٤٣ وحصل على نقوش مارب ، كلفت الأكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة المستشرق الفرنسي جوزيف هالفى Joseph Halévy البحث عن النقوش الحميرية ، فقام فى شتاء عام ١٨٦٩—١٨٧٠ برحلته المشهورة إلى اليمن ، وزار مناطق سبأ والجوف ونجران ، وعاد بنتائج عظيمة وجديدة فى ذلك الوقت من نقوش ومعلومات عامة ، كانت ولا تزال هى المرجع الوحيد إلى يومنا هذا عن الجوف بصفة خاصة . أما المناطق الأخرى مثل سبأ وظفار وحضرموت وغيرها فقد حظيت بزيارات عدة من المستشرقين والرحالة المختلفين ، وظلت منطقة الجوف فى زوايا النسيان ، أو كأنها منطقة حرام على العلم والعلماء مدى ثلاث أرباع قرن ، حتى أتاحت الظروف للكاتب أن يجول فى الجوف ويدرسه مرتين فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ، وبذلك سيكون لنا من هذه الدراسات الحديثة مرجع جديد عن مهد الدولة المعينية .

ويمكن القول بأن هالفى قام بدراسته تحت ظروف سيئة جدا فى هذه الرحلة المذكورة . ومع أنه تزيا بزى يهودى يمنى ، فقد كان يكتب ملاحظاته وينسخ النقوش على قصاصات من الورق على هيئة شريط يلفه على أصبعه ، وأحياناً كان يكتب على كم قميصه ، وكان يخفى أوراق مذكراته فى الأرض حتى يعود لمكانه خشية التفتيش الذى تعرض له مراراً،

وكان أهالى الجوف يرتابون فيه لبحثه عن الآثار والنقوش ، فتعرض للقتل غير مرة ، ولهذا كان يخشاهم ويتملكه الخوف والاضطراب النفسانى . وقد اتضح لنا الآن أن نتائج هالفى تحت هذه الظروف السيئة قد أصبحت ناقصة مبتورة ومشوهة .

ويجدر بالذكر أن المستشرق النمساوى إ . جلاز Eduard Glaser زار اليمن أربع مرات فيما بين سنى ١٨٨٢ ، ١٨٩٢ بتكليف من الأكاديمية الفرنسية أيضاً وأكاديمية براغ ، ومرتين على نفقته الخاصة ، ولكنه لم يتمكن من زيارة الجوف خوفاً على حياته من القبائل الذين كانوا يقتلون معظم الرحالة ، فعلم البدو طريقة طبع النقوش على ورق الاستمباج Estampage وأحضروا له بعض نقوش الجوف ، وأمكنه أن يصحح بعض أخطاء هالفى ، ولم يتمكن من أن ينشر إلا القليل من النقوش لعدم دراية البدو الدراية الفنية التامة بطبع تلك النقوش،ولتصرفهم فى تنويع أماكن مصادرها وعددها أيضاً .

وقد جمع هالفى فى كل رحلته ٦٨٥ نقشاً من سبأ والجوف ونجران ، وما على طريقه بين هذه المناطق ، منها ٤٨٦ نقش خاصة بالجوف فقط . وظهر لنا أن كثيراً من عدد هذه النقوش مجزأ من نقوش قليلة ، وأن سطور نقوش كثيرة اختلفت أوضاعها بالتقديم أو التأخير ، وأن سطوراً بل نقوشاً بأكملها لم ينسحها قطعاً ، وإلى غير ذلك مما اتضح لنا حديثاً من الصور الفوتوغرافية التى حصل عليها الكاتب وما نسخه فى رحلتيه أثناء عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ . ومن مجموعة هذه النتائج الأخيرة سنقدم بلا شك للباحثين فى النقوش والآثار العربية قبل الاسلام عوناً كبيراً فى دراساتهم التاريخية ، ونتيح لهم دراسة الخط المسند الذى قد يساعد على حل مشكلة إثبات تاريخ الدولة المعينية وهل هى كانت قبل سيدنا سليمان والملكة بلقيس فى القرن العاشر قبل الميلاد أو بعد هذا التاريخ .

والآثار المعينية الباقية كثيرة ، وقامت كغيرها من الآثار العربية القديمة الأخرى فى شرق الهضبة باليمن على حين نجد غرب الهضبة أو التهامة خالية من الآثار تمام الخلو . وإلقاء نظرة على طول الخط الشرقى لهضبة اليمن ترينا أن دولة معين قامت فى شمال هذا الخط ، ودولة سبأ تأسست فى وسطه ، ودولة ظفار فى جنوبه . وتعليل وضع هذه الدول قدماً

فى شرق الهضبة كان لا بد راجعاً إلى الأسباب الآتية :

أولا — ارتفاع سطح السهل الشرقى إلى ما مقدار متوسطه ١٢٠٠ متر عن سطح البحر وهو ارتفاع عظيم ، فى حين أن أقصى ارتفاع فى التهامة لايزيد عن ٣٥٠ متر عن سطح البحر ، يساعد على انتشار السكان فى وسط صحى أحسن .

ثانياً — جفاف هذه المنطقة الشرقية ، وتباين النهايتين العظمى والصغرى فى الحرارة اليومية ، من دواعى التفضيل للمعيشة على التهامة حيث تكون الرطوبة فيها عظيمة جدا لتقارب نهايتى الحرارة بسبب جوارها للبحر الأحمر .

ثالثاً — اتساع رقعة الأرض فى الشرق والجنوب الشرقى إلى مدى مئات الكيلومترات بما فيها الربع الخالى وحضرموت ، حيث تغمرها سيول الأمطار الوفيرة القادمة من الهضبة بكميات غريبة عظيمة فتساعد على زيادة الزراعة وكثرة المراعى ووفرة الخيرات ، ويتبع ذلك العمران . وهذا ما لا يتيسر فى الغرب حيث عرض التهامة يكون بالغاً نحو ٦٠ كيلومتر ، وتربتها متأثرة فى كثير من مساحاتها بالملوحة الناشئة عن رشح ماء البحر الأحمر .

فلهذه الأسباب مجتمعة مر طريق القوافل قديماً بشرق اليمن ، وارتقت الحضارات فى الشرق بسبب جودة الطقس ووفرة الزراعة وكثرة المراعى وانتشار السكان وتبادل المعاملات التجارية وتعهدات النقل البرى بالجمال ، فكانت بذلك الأمة اليمنية قديماً (أو قوم عاد) حلقة الاتصال بين أمم أواسط وغرب آسيا وبين شمال الجزيرة العربية وساحل البحر الأبيض المتوسط ومصر .

وقد ترتب قديماً على تركيز هذه الحركة التجارية فى اليمن مع ما فيها من إنتاج زراعى أيضاً ، أن انتقلت هذه الأمة من حياة البدو الخالصة أو الرعاة إلى الحياة الرفيعة ، فأسسوا المدن العظيمة على الطريق ، وأنشأوا المعابد الضخمة . ولما فكر بعض الطامعين فى غزو البلاد لاستغلال ثرواتها أقيمت الأسوار الضخمة بالأحجار الهائلة بقصد الدفاع ، وفيها فتحات لتصويب السهام مما هو باق إلى وقتنا هذا .

ويتبين لنا من هندسة بنائهم ، أنهم كانوا على شئ كبير من الفن والذوق مع البساطة وعدم التعقيد ،

وأنهم قد نقلوا طريقة البناء بالحجر والحفر عليه عن قدماء المصريين إذ كان الاتصال التجارى بينهم ذا شأن عظيم . ويظهر لنا من تسجيل قصصهم وتقديم قرابينهم وبعض تواريخهم كتابة على الأبنية بعد إقامتها ، إما بالحفر أو بالتبريز ، مع تناسق القياس فى الأبعاد والأحجام وغير ذلك ، أنهم كانوا أهل علم وخبرة ودقة . ويتضح لنا من بعد الجبال التى أتوا بأحجار البناء منها ، وطريقة قطعها وصقلها مع ضخامة حجمها ، أنهم كانوا أصحاب قوة وبأس وعزم ، وتدل آثار معابدهم على أنها كانت فى داخل المدينة وخارجها ، وكانت التى بالخارج مقامة دائماً على مسافة يسيرة من الركن الشمالى الشرقى للمدينة . ولعل ذلك كان عن عقيدة تشبه ما كان يتخيله قدماء المصريين من أن سماء الجهة الشمالية الشرقية تحوى حقول الخيرات الكثيرة فى الحياة الأخرى ، وأن كل فرد سينال منها نصيبه بمقدار ما يقدمه للمعبود فى الحياة الدنيا وهو الموضوع بهذا الركن المذكور . وأمكننا أن نجد قبور بعض الخرائب فى الركن الجنوبى الغربى . ولعل ذلك يساير اعتقاد المصريين بأن الموتى يقطنون عالماً غربياً . كذلك كانت لهم فى العقائد الدينية رموز للروح كالثعبان والبومة والكلب والتيتل والبقرة وعنقود العنب وغير ذلك مثلما كان لقدماء المصريين . كما كانت لهم نقوش زخرفية ولكنها بدائية ، وكذلك صناعة نحت التماثيل المرمرية . وكلتاهما لم يصل إلى حد الكمال الذى بلغه المصريون . ونقطع بأنهم لم يستعملوا الألوان كما استعملها المصريون وغيرهم وكذلك لم يستعملوا سوى الأحجار الجيرية والرملية وبالاختصار : قد يكشف الدرس فى المستقبل عن علاقة أو تشابه إلى حد ما بين آثار اليمن وآثار الفراعنة .

ويبدو لنا من مساحة مدنهم القديمة أنها كانت لسكنى الأشراف وذوى المكانة من رجال الدولة وأسرهم ، وكذلك لتحصيل المكوس ، ولخزن غلات الأرض لسنى الجدب ، ولإقامة الطقوس الدينية . أما جمهور الشعب فلا بد أنه كان يعيش فى حالة البداوة كما كان قبل عصر العمارة ، وكما هى أكثر حاله الآن .

وتدل بعض الآثار المعينية الشامخة الباقية للآن على أنها قد تأثرت كثيراً فيما مضى بالعوامل الطبيعية ، فتهدم الكثير منها . وأهم هذه العوامل الاغراق من سيول الأمطار الشديدة

الجارفة ، والزلازل التى زعزعت الكثير من الأبنية أو أحدثت بها تشققات عميقة وكبيرة ظاهرة . ففى خربة آل همدان بالجوف بقايا معبد قديم يسميه البدو الآن « بناة عاد » (أى بنيان عاد) وكانت بعض أعمدته لا تزال قائمة حتى سنة ١٩٤٤ ، ثم أتى عليها سيل عظيم جدا لا يقل عن سيل العرم وشاهده الكاتب فى سنة ١٩٤٥ ، وطغى طغياناً شديداً على تلك المبانى فتخربت وفقدت شكلها الأصلى .

وكلا العاملين (السيول والزلازل) كانا سبباً فى هجرة السكان قديماً على موجات متتالية من أثر الخوف والهلع من جهة ، ومن إصاباتهم فى أنفسهم وفى أموالهم من جهة أخرى ، إلى الشرق والشمال وغيرهما من جهات الجزيرة . ولما جاء عصر انحسار الأمطار ، ولمدة سنوات متتابعة ، ولمرات متكررة على غير ما ألفوه فى بدء عهدهم فتسبب لهم القحط ، وتغير الرخاء والنعيم إلى شقاء وجحيم ، وتبدلت جنتهم بخمط وأثل وأراك كثير وشئ من سدر قليل ، نزحوا فى موجات أخرى إما إلى الجهات الشمالية وغيرها ، وإما إلى الداخل نحو الهضبة ، فقلت آثارهم فيها وتفرقت ، ثم امتد الباقون بالعمران من الناحية المجدبة فى الشرق شيئاً فشيئاً إلى حيث وفرة الأمطار على قرب الهضبة (أى التهامة). ثم ظهر الاسلام وانعدمت بذلك أو تنوعت واختلفت آثارهم . هذا عدا بعض اعتبارات أخرى لها قيمتها فى أسباب الهجرة رغم اختلاف العوامل السابقة الذكر ، مثل ازدياد عدد السكان وازدحامهم وإغارة البعض على مواقع البعض الآخر ، وكثرة الحروب بينهم ، وانتشار الفتنة فيهم ، وعدم استتباب الأمن ودخول عناصر غريبة عليهم ، وفوضى الاحتلالات الأجنبية من الرومان والأحباش والفرس .

من هذا التشتت والانحلال فى قوم عاد ، ولعدم الأمن على التجارة بطريق القوافل ، ولما كان من غلوهم فى تحصيل المكوس وأجور النقل لاحتكارهم وسائله ، ولجملة أسباب أخرى طبيعية واجتماعية ، ثم لوصول الرومان إلى معرفة مواقيت النقل البحرى المناسبة من فصول السنة بالبحر الأحمر ، لهذا كله مات طريق القوافل وتحول عن شرق اليمن . ولم يكن تحول الطريق هو العامل الأول الذى أمات دول الشرق .

ومما يجدر بالذكر أن الأبعاد كانت موحدة غالباً فى تأسيس المدن قديماً ، فالمسافات فيما بينها كانت فى منتهى

الدقة مما يدل على أن ذلك يتصل اتصالا وثيقاً برحلات القوافل وتسهيل حمايتها أو إقامتها أو تموينها على طول الطريق . وكذلك كان توحيد هذه المسافات لعوامل محلية هامة أخرى فى ذلك الزمن ، مثل إعطاء الأنباء أو تبليغها ونقلها بينهم بالاشارات أو الأصوات . ولما حاق بها الدمار والهلاك فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، وبعدت تلك المسافات بعداً شاسعاً ، صار الارتحال فيها خطرا ومهلكاً . وكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . »

وثبت لنا من دراسة الشكل الخارجى لبقايا تلك الآثار المعينية أنها تمثل ثلاثة عهود .

العهد الأول — وأحجار بنائه هى الأصلية الثابتة إلى وقتنا هذا كما بناها قوم عاد .

والعهد الثانى — وأحجار بنائه متراصة فى غير تنسيق بعد هدم حصل، ونقوشها تبعثرت وأوضاعها قلبت ، مما يدل على أن ذلك كان عصر فوضى وعبث وحروب وقعت حوالى فجر الاسلام .

والعهد الثالث — واحجار بنائه صغيرة ، وأدخلت مادة الطين فى إقامتها وتركيبها ، وهذا حصل بعد ظهور الاسلام حتى القرن السادس الهجرى .

وقد أصبحت هذه الآثار معروفة « بالخربات » لأنها مهجورة ولا يرغبون فى سكناها (إلا فى بعض حالات نادرة مثل زوال الآثار وبقاء الكومة الترابية وقيام البناء الحديث عليها) ، وذلك إما للنزاع على تملكها وكسب ما بها من كنوز قوم عاد ، وإما تأثرا بالدين لأنها أماكن حلت بها لعنة الله .

ونلاحظ أن هذه الخربات مقامة على أكوام صناعيه من الطين تعلو نحو ١٥ مترا عن مستوى أرض الجوف وذلك كان بلا شك لحماية أنفسهم من سيل المطر ، مثلما كان يفعل المصريون لحماية بعض قراهم من فيضان النيل .

ويطلق البدو على آثار هذه الخرائب أسماء مختلفة ، منها آثار الكفار ، وآثار الأولين ، وآثار عاد ، وآثار حمير ، وآثار الجاهلية ، وآثار هلالية .

وقد تيسر للكاتب أن يزور أو

يقف على معالم خمس وعشرين خربة فيدرسها دراسة مستفيضة من مختلف النواحى والأغراض العلمية إلى حد ما ، ومنها إحدى عشرة خربة بها عشرون ومائتا نقش ، والباقى ليس بها نقوش ، ومنها تسع خربات فقط زارها هالفى ونوه عنها فى تقريره .

وحالة هذه الآثار المعينية ، بصفة عامة ، لا بأس بها إلى الآن ، ولو أن كثيراً منها قد تهدم بفعل السيول ، وأصاب بعض الحفائر تعرية بفعل السيول أيضاً فصارت مطمعاً للأهالى ، وطمس بعضها فى الرمال ، أو حصل لها تلف بفعل الأهالى الذين ينزعون الأحجار للاستعانة بها فى بناء منازلهم وغيرها . كما أن الأهالى يعتقدون اعتقاداً راسخاً بتوارثهم ملكية هذه الآثار عن أجدادهم بنى حمير وينقبون كثيراً فى هذه الخرائب للبحث عن الكنوز ، ويسافرون إلى عدن بما يجدونه من تماثيل مرمرية وعملة من مختلف المعادن ، وأختام ذهبية وحجرية ، وحبات قلادات من عقيق وأقراط وفصوص خواتم وغير ذلك من التحف الصغيرة ، أو بما يقدرون على حمله فى أستعتهم من الأحجار المنقوشة لبيعها أو يبيعونها لتجار بصنعاء كوسطاء للبيع فى الخارج . وكثيراً ما يتفننون فى تنويع مصادرها ليهولوا فى مشقة السفر إليها ، وليرغموا فيها ، ويغروا المشترى برفع أثمانها . وقد جمع رجل Parsée فارسى فى عدن على ممر الأيام مجموعة عظيمة من الآثار الحميرية بين سبئية ومعينية وغيرها ، وهى مجموعة لا توجد فى أكبر المتاحف . ويا حبذا لو اقتنتها إحدى الأمم العربية . وكذلك كادت تزول معالم بعض النقوش الثابته لعدم وقايتها من المؤثرات الطبيعية .

وهكذا تتناثر آثار اليمن بين مختلف الأيدى والمتاحف (كما كان الحال بمصر فى القرون الماضية) دون القطع بمصدرها ؛ لأن البدو هم الذين أجروا الحفر وليست هيئات علمية منظمة . وهكذا أيضاً تندثر آثار اليمن شيئاً فشيئاً فى الرمال بفعل العواصف ، أو تزول باستغلال الأحجار فى الأبنية الحديثة . وعلة ذلك أن حكومة اليمن تبيح للأهالى التنقيب ، ولا تحظر الاستغلال ولا تمنع البيع . وبهذا تفوت على العرب صيانة بقية التراث العتيد لقصة طويلة عن قوم عاد ، وقوتهم ثم هلاكهم ، والتى لا زلنا نجهلها ونجهل العبرة بها .

محمد توفيق